

نوح (ع) .. سيرة الجهاد والصبر



«.. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيَّكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ
مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُضْمِتْ لَهُمْ تُمًّا يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ *
تِلْكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (هود/
48-49). بهذه الكلمات المباركة يخاطب ﷺ سبحانه رسوله الأمين محمد (ص) بعد أن عرض عليه
قصة نوح (ع) مع قومه، وليس ذلك إلا لأخذ العبرة وتبيان العاقبة.. والحقُّ أنَّهُ ليس هناك
مصدر يعتمد عليه في قصص الأوثان غير القرآن الكريم وكلُّ ما عدا ذلك فهو رجم بالغيب إلا
ما صحَّ من بعض الروايات عن النبي (ص) وأهل البيت (ع). ولنرجع الآن إلى القرآن الكريم
لنستلهم منه جوانب وأبعاد تلك القصة المعبرة: قصة المعاناة والألم في رحلة الدعوة،
والصبر والجهاد المتواصل من قبل نبي ﷺ نوح (ع)، والأذى المتنوع الذي لاقاه من قومه. ولا
نريد أن نستعرض - كما حاول البعض - المراحل السابقة لبعثة النبي نوح (ع) ونسبته
وأجداده وآبائه ومثل ذلك عن قومه... ولكننا نريد أن نتوقف في البداية أمام واقع
المجتمع والملا الذين أرسل إليهم نوح (ع). فلقد كان قوم نوح (ع) مشركين في العبادة:
تَذَرُونَ آلِهَةً مَّتَعِدَّةً، وَالْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا
تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوءَ عِبَادَةٍ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) (نوح/ 23). ويقال إنَّ
هذه الأصنام كانت تماثيل لرجال صالحين قبل نوح (ع) ثمَّ انحرف القوم وعبدوها حتى انتقلت

أسمائها إلى العرب قبل الإسلام فيما بعد. ووصف القرآن الكريم في أماكن أخرى قوم نوح (ع) بالظالمين والضالين والفاسقين، وطبيعي أمام انتشار الفحش والظلم والطغيان أن يرسل إليهم رسولاً لينذرهم وليأمرهم بالإيمان والصلاح وطاعة الله وعبادته، وترك ما هم فيه من الكفر والردائل. وما كان إلا ليعذبهم قبل أن يبليهم ويلقي إليهم الحجة، ويبين لهم الحق! قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنَ قَدِيرِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (نوح/ 1). وهكذا: انطلقت الرسالة وتحركت مسيرة الدعوة إلى الله: قال (أي نوح): (أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْسِيَاءَهُمْ لَعَلَّكُمْ مِنْ دُورِهِمْ...) (نوح/ 3-2). (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ) (الأعراف/ 59). فتوضحت معالم الحق وأهداف الرسالة: - الإيمان بالله الواحد وترك الآلهة التي كانوا يعبدونها. - الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له. - الإيمان بالرسول وطاعة الله من خلال طاعة رسوله والالتزام برسالته... ولكن...! أبى أتباع الشيطان إلا أن يعاندوا ويعصوا ويرفضوا الحق، بل أكثر من ذلك فلم يكن يكفي أحدهم بأن يكفر، بل أخذ يدعو إلى الكفر وينهى عن الإيمان والتقوى، زرد على أنهم لجأوا إلى أساليب الخداع والنفاق وإثارة القضايا التافهة في وجه الرسول والرسالة، وتتخلص مواقف قوم نوح (ع) وجدالهم في الأمور التالية: - اتّهام نوح (ع) بالكذب والضلال: (إِنَّا لَنَذِرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأعراف/ 60). - اتّهام نوح (ع) بالكذب والضلال: (إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) (المؤمنون/ 25). - اتّهامه بحب التفضل عليهم: (مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَى الَّذِينَ هُوَ خَلْقَهُمْ) (المؤمنون/ 24). - لو أراد الله نبياً لجعله ملكاً: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةً) (المؤمنون/ 24). - غرور الزعماء والأشراف: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ زُودُوا مِنْ فَضْلِكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) (الشعراء/ 111). هذا كله في بداية الدعوة والمواجهة، حيث أنه قد آمن بنوح (ع) قليل من القوم الفقراء ولذا عبثوا عنهم بالأراذل، وهكذا دوماً المستكبرون، والقاسية قلوبهم يرفضون الحق ولا يعطون لأنفسهم فرصة التفكير والتأمل، بل من موقع الطغيان والتكبر يصرّون على الانحراف والابتعاد عن الحق والنور والخير، لأنهم قد عميت قلوبهم عن ذكر الله، وعميت بصائرهم عن رؤية النور الوهّاج والضياء اللامع الذي يأتي به الإيمان والحق! ورغم كلّ المواقف السلبية انطلق نوح (ع) بالأسلوب الهادئ اللطيف، تحرّركه الرحمة والشفقة، ويدفعه حبّ الخير والصلاح لنفسه ولغيره، يندفع بقوة الإيمان وعزيمة الأنبياء (ع) ليكشف الحقائق وليجلو بعض الصدأ عن قلوب قومه

الْمَرِّ جُومِينَ) (الشعراء/ 116)... فكانت الشرارة التي اشعلت نار الغضب، (وَأُوحِيَ
 إِلَيَّ نُوحٍ أَنِ نِزَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ
 بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (هود/ 36). (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِ نُرِي مَغْلُوبٌ
 فَانْتَصِرُ) (القمر/ 10)، (وَقَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي) (المؤمنون/
 26)، (فَافْتَحْ بَيْتِي وَبَيْتَ نَهْمٍ فَتَدْحًا وَنَجِّرْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنْ
 الْهُمُومِينَ) (الشعراء/ 118). وهكذا ينس نوح من قومه وتيقن من أنه لن يؤمن إلا من
 قد آمن! فتذكر العذاب والمعاناة، تذكر الألم والصبر، تذكر السنين الطوال والقرون
 المتوالية، فتوجه إلى الله يشكو بثه وحزنه، ويعرض ما قدّمته يده ويشكو قومه وأفعالهم:
 (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيُؤْمِنُوا وَنَهَارًا * فَلَمَّ يَزِدْهُمْ دُعَائِي
 إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُؤْمِنُوا لِنْتَعِفِرُوا * وَجَعَلُوا
 أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ
 وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَجَاءتْهُمْ آيَاتُنَا وَمَا يَكْتُمُونَ * إِنِّي نَزَّهْتُ
 عَنْ آلِيَّ * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيَّكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ
 وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (نوح/ 5-12)،
 (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا * إِنَّكَ
 إِن تَذَرْنِي يَاسِرًا * يَضِلُّوا عِيَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا) (نوح/
 26-27). إنّه يشكوهم من صميم القلب والمعاناة، حيث أنه استنفذ الوسائل في دعوتهم حتى
 بدأ المرحلة الأخيرة معه. ويروى أنّ الرجل منهم كان يأتي بولده وهو صغير فيقيم على
 رأس نوح (ع) ويقول له: يا بني إن بقيت بعدي فلا تطيعن هذا المجنون، وكانوا يثورون به
 فيضربونه حتى يدمى ويغشى عليه! (فَأَوْحَيْتُنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ *
 بِأَعْيُنِنَا * وَوَحَيْتُنَا * وَوَحَيْتُنَا) (المؤمنون/ 27). (وَاصْنَعِ الْفُلَ * بِأَعْيُنِنَا
 * وَوَحَيْتُنَا * وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (هود/
 37). (وَاصْنَعِ الْفُلَ * وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
 مِنْهُ * قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنِّي * فَإِنِّي نَسَّخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ *
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِ تَرْبِيَّ * عَذَابٌ * وَيَحْلِلُ * عَلَيْهِ * عَذَابٌ *
 مُقِيمٌ) (هود/ 38-39). ويروى أنهم كانوا يقولون له: يا نوح صرت نجّاراً بعد النبوة،
 وهل ستجري سفينتك على الرمال؟! كل ذلك وإيهم لهم ليوم الوقت المعلوم: يوم الطوفان!
 يوم الغرق! (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا * وَفَارَ التَّنْزِيلُ * فَوَلَّانَا * فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ * وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (هود/ 40). وبهذا استدلل على أن الطوفان ملأ الأرض كلها وإلا فما فائدة حمل زوجين من كل شيء على الأرض. (فإِذَا اسْتَوَيْتَ أَرْضَنَا وَمَنْ مَعَكَ عَلَي الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (المؤمنون/ 28). (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أُمَّرٍ قَدٍ قُدْرٍ * وَحَمَلْنَا فِيهَا الْعَالَمِينَ * وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ كَمَا يُسْرَى * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا... (القمر/ 11-14). (فَأَنْزَجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْوَادِي الْأَخْضَرِ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء/ 119-122). فسبحان ربك رب العزة عما يصفون! وهكذا انتهت رحلة المعاناة بين نوح وقومه الظالمين، ولابد من التوقف عند نقطة مميزة في المقام وهي أن نوحاً كان يعتقد أن ابنه معه وهو مع أهله لأنّه - كما يروي البعض - كان يتظاهر بالإيمان والطاعة للنبي (ع)، ولكنه كان يبطن الكفر فلم يركب في السفينة لكفره ولذا خاطب سبحانه نوحاً بقوله: (قَالَ يَا نُوحُ ابْنُكَ لَيْسَ مِنَ الْهَالِكِ ابْنُكَ إِلَّا نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَافِقِينَ) (هود/ 46)، فلم تنفع قرابة ابن نوح (ع) في نجاته من الغرق وكذلك امرأته... فلا يعتقدن أحد أن عندنا مقياساً غير مقياس الإيمان والعمل الصالح! أمر آخر نتوقف عنده وهو: إن نوحاً (ع) ومَنْ معه بعد الطوفان لم يستكبروا ولم يعلوا في الأرض ولم يعيشوا في أجواء الفرح والنصر. بعيداً عن الفرح وشكره سبحانه.. وهذا شأن المؤمنين المتقين، إذا اتاهم نصر أو وعونه يزداد شكرهم واعتمادهم على الله. ولذا قال نوح (ع) لقومه عند ركوب السفينة: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (هود/ 41).. وهذا ما يجب أن يلتزم به كل إنسان مؤمن في حياته، في كل عمل يقوم به ويؤدبه.. ويروى أن نوحاً (ع) سجد بمجرد نزوله من السفينة شكراً لله تعالى، وانطلق من معه لبنوا مسجداً يعبدون الله فيه فيما تذكر الروايات. قال تعالى: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَرْضَنَا وَمَنْ مَعَكَ عَلَي الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلِ الرَّحْمَنُ أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ سَمَاءٍ أَلْوَدُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (هود/ 47). وهكذا استجاب الله دعاء نوح (ع) بعد أن صنع ما صنع بعين الله ورعايته. (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اْقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ

وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (هود/ 44). وطهرت الأرض بالطوفان لتفتح صفحة جديدة من صفحات الحياة في هذا الكون، ولتنطلق رحلة الصراع من جديد بين خطا وخط الشيطان، (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَايَكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُضْمِتُّ لَهُمْ تُمًّا يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (هود/ 48). (وَلَقَدْ زَادْنَا نُوْحًا فَلَنَدْعُمَ الْمُجْرِبُونَ * وَزَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَاهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) (الصافات/ 75-77). فما أعظم القرآن في تعبيره عن عظمة ا و قدرته! و(سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ) (الصافات/ 79). بقي علينا أن نستعرض ما يمكن الاستفادة منه في هذه القصة القرآنية، ويتلخص ذلك في نقاط تحوي دروساً وعبراً: 1- خط الأنبياء واحد: إنّه الخط الذي يدعو إلى الإيمان با الواحد وبالأنبياء والرسل وباليوم الآخر. 2- الهداية من ا للبشر بمعنى أن ا بعث الرسل وأمر باتباعهم واتباع الأوصياء والأولياء والعلماء من بعدهم. 3- الإيمان والعمل الصالح يؤدّي إلى المغفرة والرضوان، والكفر والعصيان نتيجته العقوبة والعذاب في الدنيا والآخرة. (الطوفان والنار). 4- على الداعية في سبيل ا أن يرتبط با ويتوكل عليه ويخلص في عمله ويشكو أمره إليه وحده، وأن يعمل بعيداً عن المصالح الشخصية والخاصة. 5- على المؤمنين الصبر في مواجهة الكفار والمنافقين وعليهم أن يستنفدوا كلّ الوسائل لهداية الناس، وأن يكرروا المحاولات كثيراً. 6- المقياس عند ا هو التقوى وليس بين ا وبين أحد قرابة. و لا ينظر إلى الناس إلا بمقدار عملهم وإخلاصهم سراً وعلانية. 7- شكر ا عند كلّ أمر وخاصة عند النصر والنعم وطلب الأجر منه خاصة. 8- عدم الاستسلام والضعف والخوف من أعداء ا ولو هددوا المؤمنين بالقتل والسجن وما شابه. 9- أن يكون كلّ عمل يعمله الإنسان بعين ا وفي سبيل ا "بسم ا مجراها ومرساها" وهذا يشمل أعمال الأفراد والجماعات، في العبادات والمعاملات وغير ذلك... المصدر: مجلة نور الإسلام/ العدد الأول لسنة 1988م